

ظاهرة الحذف ودلالاتها البلاغية في تفسير أبي السعود Expunction Phenomenon and Its Significance in Aboul Soud's Qur'an Exaggerations (A Case of Rhetorical Analytical Study)

* د. يحيى خان

** د. حفاظت الله الحافظ

Abstract

Aboul Saud's Qur'anic interpretations are honored globally. They are intermingled with a lot of Rhetorical phenomenon. Scholars globally recognize it being a useful source of Qur'anic stylistics based study and they have merely used to let it being major reference in their own Qur'an based researches. Aboul Saud kept prime focus on several rhetorical concepts; in particular he interpreted many verses in the light of Expunction and disclosed it in detail wherever it had been. The following paper intends to read out this stylistics based applied concept in Holy Qur'an along with its fruitful comparative study with other notable rhetoricians' opinions like Abd Qāhir al-Jurjānī, Al-Zamakhshari and Al-Baydawi etc.

Keywords: Arabic Rhetoric, Ilm al-Ma'ānī, Expunction, Aboul Saud.

مفهوم الحذف:

الحذف لغة: هو مصدر فعل: "حذف يحذف" من باب "ضرب يضرب"، وردت له عدة معان في كتب المعاجم، حيث جاء في لسان العرب: "حذف الشيء يحذفه حذفاً: قطعه من طرفه، والحجم يحذف الشعر، من ذلك." وجاء في الصحاح، "الحذف: الرمي عن جانب والضرب عن جانب، كقولك: حذف يحذف حذفاً. وحذفه حذفاً: ضربه عن جانب أو رماه عنه، وحذفه بالعصا وبالسيف يحذفه حذفاً وتحذفه: ضربه أو رماه بها." وكذلك حذف الشيء إسقاطه، ومن ذلك قول العرب: "حذفت من شعري ومن ذنب الدابة أي أخذت".¹ فكلمة الحذف تدل على القطع، والرمي والضرب، والإسقاط، ولعل الأنسب هنا هو: الإسقاط لا الضرب والقطع والرمي، ولأجل ذلك أتى به - الإسقاط - العلماء في التعريف الاصطلاحي للحذف، كما سنعرف.

الحذف اصطلاحاً: جاء تعريفه عند الرماني بأنه: "إسقاط كلمة للاجتراء عنها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام."² وعند الزركشي، بأنه: "إسقاط جزء الكلام أو كله لدليل."³

والتعريفان كلاهما يدلان على أن الحذف أسلوب تعبيرى يمكن توظيفه في الكلمة والجملة والجمل، فالحذف قد يكون مفرداً وقد يكون جملة وقد يكون أكثر منها، بعد وجود ما دل عليه من الحال أو فحوى الكلام. أضيف إلى ذلك حذف جزء الكلمة ليشمل الترخيم في النداء، والحذف في أواخر الفواصل القرآنية، وما يحذف من الكلمة في الشعر، أو حتى في النثر للدلالات بلاغية لا لسبب نحوي أو صرفي.⁴

أهمية ظاهرة الحذف:

الحذف ظاهرة أسلوبية تزين العبارة، وتقوي حيكها، وتزيد إيجائها، وتقربها إلى كلام أهل الطبع، وهي من ناحية أخرى تدل على قوة النفس وقدرة اللسان، وصدق اللفظ وسلامة الفطرة عند المتحدث والكاتب. وكذلك هي

* محاضر اللغة العربية والدراسات الإسلامية بجامعة سوات، محافظة خيبر بختون خواد - باكستان.

** الأستاذ المساعد بجامعة الكلية الإسلامية بشاور، محافظة خيبر بختون خواد - باكستان.

ظاهرة لا تعد غريبة على اللغة العربية، لأن من طبعها الإسقاط والحذف من الألفاظ التي يدل عليها غيرها، أو ما يريشد إليها سياق الكلام وسباقه، أو دلالة الحال والمقام. ولعل أصل بلاغة العربية يكمن في هذا الإيجاز - الحذف - الذي يعتمد على ذكاء القارئ ولسامع، ويعول على إثارة حسه وبعث خياله، وتنشيط نفسه حتى يصل إلى فحوى الكلام بالقرينة، ويدرك باللمحة لا بالصرحة، ويفطن إلى معاني الألفاظ التي طواها تعبير المتكلم والكاتب. وقد لا يجد القارئ المتذوق للأدب متاع ذوقه في النص الواضح البين جداً، والعبارة المكشوفة إلى حد التعرية، والتي تسيء الظن بعقله وذكائه، وإنما يجد متعة ذوقه في الكلام الذي يحرك حسه وينشط ذهنه ليستوضح ويستبين، ويكشف الأسرار والمعاني وراء الإيجازات والرموز، وحين أدرك مراده بعد التأمل والتفكير وإمعان النظر في المحذوف كان ذلك أمكن في نفسه وأوقع على حسه، وأملك له من المعاني التي يجدها مبذولة في سياق اللفظ.⁵

وقد نالت هذه الظاهرة عناية بالغة بالبحث والدراسة عند كل من البلاغيين والنحويين، فنجد الإمام عبد القاهر الجرجاني يصفها بأنها: "باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتجحد أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبين."⁶

ونرى ابن سنان الخفاجي، يجعل الحذف من شروط الفصاحة والبلاغة عند العرب، "لأنهم يحذفون فضول الكلام ويعبرون بالألفاظ القليلة عن المعاني الكثيرة. وعلّة هذا - عند الخفاجي - أن الأصل في مدح الاختصار والإيجاز في الكلام أن الألفاظ غير مقصودة في ذاتها، وإنما القصد هو المعاني والأغراض التي احتيج إلى التعبير عنها بالكلام، فأصبح اللفظ بمنزلة الطريق والوسيلة إلى المعاني التي هي مقصودة ومطلوبة، وإذا كان طريقان يوصل كل واحد منهما إلى الهدف على حد سواء في السهولة إلا أن أحدهما أخصر وأقرب من الثاني، فلا شك أن يكون المحمود منهما هو أخصرها وأقربهما سلوكا إلى المقصد."⁷

ولأهميته - الحذف - أورده ابن جني في باب سماه: باب في شجاعة العربية، وأضاف قائلاً: "قد حذفت العرب الجملة والمفرد والحرف والحركة، وليس شيء من ذلك إلا عن دليل عليه، وإلا كان فيه ضرب من تكليف علم الغيب في معرفته."⁸ ثم نرى أن هذه الظاهرة وردت في القرآن الكريم بكثرة كأى ظاهرة أسلوبية أخرى، وقد اهتم البلاغيون بالغ الاهتمام بإبراز دواعيها وأسبابها وشروطها، ودراسة أساليبها وأنواعها في كتاب الله عز وجل، وطبقوا قواعدها وأصولها على التراكيب القرآنية. ونجد على رأسهم الإمام عبد القاهر الجرجاني، ثم تابعه الإمام الزمخشري مكملًا ما بدأه الإمام عبد القاهر، ومهدا للطريق إلى تطبيق الأصول البلاغية على النص القرآني المعجز. ثم على ذلك النهج كثير من المفسرين، فنجدهم يلخصون، ويمحصون، ويلقون على ما أتى به الإمام عبد القاهر، والإمام الزمخشري، وفي مقدمة هؤلاء المفسرين: القاضي البيضاوي، والعلامة أبو السعود.

لذلك أردنا في هذا المقال أن ندرس ظاهرة الحذف من ناحية المفهوم، ومن ناحية أنواعها وأساليبها المختلفة في القرآن الكريم عند العلامة أبي السعود، كما سنحاول أن نكشف عن آراء وأفكار مبتكرة له في هذا الميدان.

أنواع الحذف ودراستها في تفسير أبي السعود:

ذكر علماء البلاغة عدة أنواع للحذف، سنتناول فيما يلي كل قسم منها متعرضين لدراسته عند أبي السعود رحمه الله. **النوع الأول: الاقتطاع:** جاء تعريفه عند السيوطي في معترك الأقران: "هو حذف بعض حروف الكلمة"⁹ بينما عرفه العلامة الزركشي في البرهان، بأنه: "ذكر حرف من الكلمة وإسقاط الباقي"¹⁰ ولا يخفى على القارئ أن تعريف السيوطي أصح وأشمل من تعريف الزركشي. ونلاحظ كلام صاحب "البلاغة العربية" واضحاً جداً في هذا الصدد، حيث قال: "الاقتطاع: هو حذف

بعض حروف الكلمة، أو ما هو بمثابة الكلمة الواحدة، تخفيفاً على مخارج الحروف، أو لداعي السرعة، أو الترخيم في النداء، أو لأجل القافية في الشعر، أو الفاصلة في النثر، أو نحو ذلك من دواعي بلاغية.¹¹ وقد جعل البلاغيون الترخيم من الاقتطاع، ومثال ذلك قول الله تعالى: "وَنَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رُبُّكَ"¹² بالترخيم، أي "يا مال" على قراءة بعضهم.¹³ "والسر في الحذف أنهم لشدة ما هم عجزوا عن إتمام الكلمة. وهذه علة بلاغية، لأنها تشير إلى ما وراء هذا الحذف من ضيق الصدر، وغلبة اليأس ومعاناة الهول معاناة شغلته عن إتمام الكلمة."¹⁴ ومن هذا الباب قول امرؤ القيس:

"أفأطم مهلاً بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرمني فأجملي"¹⁵
أي: أفأطمه.¹⁶

وقد عد العلامة السيوطي من هذا النوع حذف همزة -أنا- في قوله تعالى: "لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا"¹⁷ "إذ الأصل: لكن أنا، حذف همزة -أنا- تخفيفاً وأدغمت النون في النون." وادعى بعضهم أن الباء في "وَأَمْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ"¹⁸ أول كلمة بعض ثم حذف الباقي، كقول الشاعر: "قُلْتُ لَهَا قِفِي لَنَا قَالَتْ قَافٌ" أي وَقِفْتُ.¹⁹ وأدخل السيوطي والزركشي "الحروف المقطعة" في أوائل السور القرآنية أيضاً من هذا القبيل، يلاحظ قولهما "لأن كل حرف منها يدل على اسم الله تعالى، كما روى ابن عباس: "لم" معناه "أنا الله أعلم وأرى" و "المص" معناه: "أنا الله أعلم وأفضل" وكذا الباقي."²⁰

أما العلامة أبو السعود، فهو لم يجعل المقطعات من هذا القبيل، وأنه رجح قولين بعد أن أورد كثيراً من أقوال العلماء في تحقيقها. وجاء قوله في تفسيره: "هذه الحروف إما أن تكون أسماء للسور المصدرة بها، وإما أن تكون مسرودة على نط التعديد، وإنما وردت هكذا ليكون إيقاظاً بمن تحدي بالقرآن وتنبهها لهم على أنه منتظم من عين ما ينظمون منه كلامهم فلولا أنه خارج عن طوق البشر نازل من عند خلاق القوى والقدر لما تضاءلت قوتهم ولا تساقطت قدرتهم في معارضته."²¹

وبعد الاستقراء والتتبع في تفسير العلامة أبي السعود، لم نطلع على تصريح أو إشارة من صاحبه إلى هذا المصطلح -الاقتطاع- رغم عنايته الشديدة بظاهرة الحذف -بصفة عامة- في التراكيب القرآنية. ونراه يشير في كثير من المواضع إلى حذف بعض الحروف من الكلمة، والذي جعله البلاغيون من قبيل هذا النوع -الاقتطاع- لكنه لم يصرح بأنه من صنعة الاقتطاع.

فإنه جعل حذف "التاء" في قوله تعالى: "وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ"²² للتخفيف، وقال إن الأصل، هو: "لا تتعاونوا"²³ وكذلك قوله عز وجل: "فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ"²⁴ حذف تاء الافتعال -اسطاعوا- تخفيفاً وحذراً عن تلاقي المتقاربين.²⁵ ومثل قوله تعالى: "ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا"²⁶ حذف التاء للتخفيف أي: "لم تستطع".²⁷ وقال في الترخيم الواقع في قوله تعالى: "وَنَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رُبُّكَ"²⁸ وقرىء "يا مال" على الترخيم. ولعله رمز إلى ضعفهم وعجزهم عن تأدية اللفظ بتمامه.²⁹ وفي كل هذه المواضع وغيرها لم يشر العلامة أبو السعود إلى أن هذا الحذف من قبيل الاقتطاع، بل نجده مكتفياً بذكر غرض الحذف.

وصرح الإمام الزركشي في البرهان على أن هذا النوع -الاقتطاع- ورد في الأحاديث أيضاً، وأورد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في مثاله: "كفى بالسيف شاً"³⁰ أي شاهداً. ونقل عن ابن رشيقي في تحليل ذلك: "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يرد أن يصير هذا الخبر حكماً شرعياً، فقطع الكلام وأمسك عن تمامه.³¹ وذكر ابن رشيقي أمثلة كثيرة من الشعر العربي المتضمن إلى هذا النوع من الحذف، فمنه قول علقمة بن عبدة:

مقدم بسبا الكتان ملثوم³²

"كأن إبريقهم ظبي على شرف

يريد " بسبائب الكتان ". وكذلك قول لبيد:

وَقَفَادَمَتْ بِالْحَبْسِ فَالسُّوبَانِ³³

"دَرَسَ الْمَنَا بِمَتَالِ فَأَبَانَ

يريد " درس المنازل " وعلة الحذف في البيتين - عند ابن رشيقي - الاضطرار، وضرورة استقامة وزن الشعر، ثم قال: "أما سائر العرب فالحذف في كلامهم كثير لحب الاستخفاف، وتارة للضرورة."³⁴

وذكر الزركشي والسيوطي³⁵ أن ابن الأثير أنكر وقوع هذا النوع من الحذف في القرآن الكريم، وردا رأيه بأن بعض البلاغين جعلوا المقطعات من هذا القبيل، وحاولوا ضعف رأيه بسياق الأمثلة من القرآن الكريم كما مر. ولعل الإنكار يفهم من قول ابن الأثير في كتابه "المثل الثائر" حيث جاء فيه: "واعلم أن العرب قد حذفن من أصل الألفاظ شيئا لا يجوز القياس عليه، كقول بعضهم - أي علقمة الفحل:

كأن إبريقهم ظبي على شرف مقدم بسبا الكتان ملثوم³⁶

فقوله: "بسبا الكتان" يريد بسبائب الكتان، فهذا وأمثاله مما يقبح ولا يحسن، وإن كانت العرب قد استعملته، فإنه لا يجوز لنا أن نستعمله."³⁷ أما التصريح على إنكار وقوعه في القرآن الكريم فلم نطلع عليه. والله أعلم.

النوع الثاني: الاكتفاء:

قال العلامة السيوطي في معترك الأقران في تعريف الاكتفاء: "هو: أن يقتضي المقام ذكر شيئين بينهما تلازم وارتباط فيكتفى بأحدهما عن الآخر لنكتة ويختص غالبا بالارتباط العطفى"³⁸ ومثل له كل من الإمام الزركشي والإمام السيوطي بأمثلة كثيرة من القرآن الكريم لحسن موقعه، ودقيق مسلكه. ومن ذلك قوله تعالى: "وَجَعَلَ لَكُم سَرَائِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ"³⁹ أي والبرد. أما علة تخصيص الحر بالذكر، لأن الخطاب للعرب وبلادهم حارة والوقاية من الحر عندهم أهم لأن الحر أشد عندهم من البرد.⁴⁰

وبعد الاستقراء والتتبع في تفسير أبي السعود، نجد أن العلامة أبا السعود يشير إلى هذا النوع - الاكتفاء - من الحذف فيما يقارب ثمانين موضعا من الكتاب الكريم، كما نلاحظ أنه وفق في أكثرها بما توفيق، ويدل هذا على اهتمامه البالغ بتطبيق القواعد البلاغية على التراكيب القرآنية بشكل عام، وعلى توسع نظره إلى ظاهرة الحذف وإيجاءاتها البلاغية بشكل خاص. نورد فيما يلي بعض الأمثلة من ذلك.

فمن ذلك قوله تعالى: "قَالَ أَقْرَبْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَيَّ دَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَبْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا"⁴¹ ذكر في الآية الكريمة الإقرار وأخذ الإصر، ثم اكتفي بالإقرار - أقرنا - ولم يذكر الإصر، قال أبو السعود: "وإنما لم يذكر أخذهم الإصر اكتفاءً بذلك."⁴²

ومن هذا القبيل قوله تعالى: "وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً"⁴³ وصف "رجالا" بالكثرة، ولم يوصف "النساء" مع أن المقام يقتضي ذلك، وإنما عدم وصفه بالكثرة من باب "الاكتفاء" يقول العلامة أبو السعود: "ونساء، أي: كثيرة وترك التصريح بها للاكتفاء بالوصف المذكور."⁴⁴

ومن أروع ما ذكره العلامة أبو السعود من هذا النوع، قوله تعالى: "وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كُلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا"⁴⁵ إن الآية الكريمة توجب إتمام الكيل وقت كيل البائع للمشتري، وكذلك تأمر بالوزن بالقسطاس - الميزان - المستقيم. واختار القرآن الكريم أسلوبا في غاية الروعة والبداعة، حيث صرح على ما كان ذكره ضروريا في كلا الأمرين، وحذف في كليهما ما كان يمكن أن يستدل ويستفهم من المذكور جاريا على أسلوب الجزالة

والإيجاز. وبيان ذلك عند أبي السعود، أن الاكتفاء باستقامة الميزان عن الأمر بإيفاء الوزن لما أن عند استقامته لا يتصور الجور والتطيف غالباً، بخلاف الكيل فإنه كثيراً ما يقع التطيف مع استقامة الآلة، فاكثفي بذكر استقامة الآلة لأنها إذا استقامت وتعذلت يفى الوزن ولا يقع الجور فيه. أما الكيل فورد الأمر بإيفاء ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ مع عدم التعرض لاستقامة آلة الكيل، لأن إيفاء الكيل لا يتصور بدون تعديل المكيال، فاكثفي بذكر ما هو أهم، وحذف ما يمكن أن يستفاد ويستنبط من المذكور.⁴⁶ وهذا من الدقائق. ولعل العلامة أبو السعود متفرداً بتحليل الآية بهذا الشأن الدقيق، فلم نجد مصدراً لما ذهب إليه من أسرار الحذف من هذا النوع. وتابعه العلامة الألوسي ونقل عبارته نقلاً أميناً، يقول في تفسيره: "ولعل الاكتفاء باستقامته عن الأمر بإيفاء الوزن كما قال شيخ الإسلام - العلامة أبو السعود - لما أن عند استقامته لا يتصور الجور غالباً بخلاف الكيل فإنه كثيراً ما يقع التطيف مع استقامة الآلة كما أن الاكتفاء بإيفاء الكيل عن الأمر بتعديله لما أن إيفاءه لا يتصور بدون تعديل المكيال وقد أمر بتقويمه أيضاً في قوله تعالى: "أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ".⁴⁷

ويرى العلامة أبو السعود أن ما يذكر في الذكر الحكيم في قصة واحدة في موطن، وما يحذف منها في موطن آخر "اكفاء" بما ذكر في موطن عما ترك في موطن آخر، هو من النكت التنزيلية ومن أساليبه البديعة. "وإن التنوع في حكاية كلام واحد على أساليب مختلفة حسبما يقتضيه المقام ويستدعيه حسن الانتظام ليست بعزيزة في الكتاب العزيز."⁴⁸ وجعل من ذلك ما جاء في حكاية دعاء زكريا عليه السلام، فجاء من حكايته في سورة الكهف، في قوله تعالى: "وإني خفتُ المَوَالِي مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا"⁴⁹ وجاء منها في سورة آل عمران، في قوله تعالى: "وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ"⁵⁰، "هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ"⁵¹ ومن الواضح أنه ذكر داع للإقبال على الدعاء المذكور وهو مشاهدة الرزق مع مريم عليها السلام، ولم يتعرض لذلك في الآيات الكريمة من سورة الكهف، كما ذكر مقدمة للدعاء المذكور في سورة مريم، وهي خوف الموالى من وراء وعمق زوجته، ولم يتعرض لها في الآيات من سورة آل عمران، والسرف في سياق القصة على هذا النهج البديع الموجز هو جريان الكلام على أسلوب الإيجاز المتواجد في نمط من أنماط الحذف وهو الاكتفاء، يقول أبو السعود: "ولا يقدح في ذلك أن يكون هناك داع آخر إلى الإقبال على الدعاء المذكور من مشاهدته عليه السلام للخوارق الظاهرة في حق مريم كما يعرب عنه قوله تعالى هنالك دعا زكريا ربه الآية وعدم ذكره هنا للتعويل على ذكره هناك كما أن عدم ذكر مقدمة الدعاء هناك للاكتفاء بذكره هنا فإن الاكتفاء بما ذكر في موطن عما ترك في موطن آخر من النكت التنزيلية."⁵²

وأشار العلامة إلى هذه النكتة في القصص القرآنية التي وردت في القرآن الكريم في سياقات متعددة وبأساليب مختلفة، كقصة إبراهيم عليه السلام مع الضيوف، وقصة لوط عليه السلام، وقصة موسى عليه السلام وغيرها. تحدثنا عنها بالتفصيل في دراستنا للدكتوراة في البلاغة القرآنية.

النوع الثالث: الاحتباك: تعريفه عند السيوطي "هو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول"⁵³ وتعريفه عند الزركشي: "أن يجتمع في الكلام متقابلان، فيحذف من كل واحد منهما مقابله، لدلالة الآخر عليه."⁵⁴ ولم يسمه الزركشي هذا الاسم بل سماه "الحذف المقابلي"، وهو من أطف الأنواع وأبدعها عند الإمام السيوطي، وهو يشتمكي قائلاً: "إن قل من تنبه له أو نبه عليه من أهل فن البلاغة، وأفرده بالتصنيف من

أهل العصر العلامة برهان الدين البقاعي. ومأخذ تسميته عند السيوطي، أنه من الحبك الذي معناه: الشد، والإحكام، وتحسين أثر الصنعة في الثوب، فحبك الثوب: سد ما بين خيوطه من الفرج وشده وإحكامه، بحيث يمنع عنه الخلل مع الحسن والرونق. وبيان أخذه منه من أن مواضع الحذف من الكلام شبهت بالفرج بين الخيوط فلما أدركها الناقد البصير بصوغه الماهر في نظمه وحوكه فوضع المحذوف مواضعه كان حابكا له مانعا من خلل يطره فسد بتقديره ما يحصل به الخلل مع ما أكسبه من الحسن والرونق.⁵⁵

وبعد الاستقراء والتتبع لم نثر على هذا المصطلح في تفسير أبي السعود، وأما ما ذكره السيوطي والزركشي بعض الأمثلة من هذا النوع، مثل قوله تعالى: "وَأَخْرُوزَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا"⁵⁶ والتقدير عند من يرى "الاحتباك" فيها: "خلطوا عملا صالحا بسيء وأخر سيئا بصالح" لأن الخلط يستدعي مخلوطا ومخلوطا به.⁵⁷ وأي عملا صالحا بسيء وأخر سيئا بصالح، فإن العلامة أبو السعود لا يرى الحذف على هذا النهج في الآية الكريمة كما يراه الإمامان - الزركشي والسيوطي - بعده. وخلاصة ما أورده أبو السعود هنا، هي: "أن الاعتراف بذنوبهم لا يناسب الخلط لا سيما على وجه يؤذن بتوارد المختلطين وكون كل منهما مخلوطا ومخلوطا به كما يؤذن به تبديل الواو بالباء في قوله تعالى: وآخر سيئا، فإن قولك خلطت الماء باللبن يقتضي إيراد الماء على اللبن دون العكس وقولك خلطت الماء واللبن معناه إيقاع الخلط بينهما من غير دلالة على اختصاص أحدهما بكونه مخلوطا به وترك تلك الدلالة للدلالة على جعل كل منهما متصفا بالوصفين جميعا وذلك فيما نحن فيه بورود كل من العملين على الآخر مرة بعد أخرى والمراد بعمل السيء ما صدر عنهم من الأعمال السيئة أولا وأخرا وعن الكلبي التوبة والإثم وقيل الواو بمعنى الباء كما في قولهم: بعث النشاء شاة ودرهما بمعنى شاة بدرهم."⁵⁸

والعلامة وإن لم يصرح بإنكار نوع الاحتباك في الآية، لكننا نجد العلامة الألوسي بعده، يفسر الآية على فتح أبي السعود، ويرد على أصحاب تقدير الاحتباك قائلا: "وإدعى بعضهم أن ما في الآية نوع من البديع يسمى الاحتباك، والأصل: "خلطوا عملا صالحا بأخر سيء وخلطوا آخر سيئا بعمل صالح"، وهو خلاف الظاهر وقد أطال النفس في تحليل الآية وبسط الكلام في إثبات على ما يراه.⁵⁹

ومما شاع من أمثلة الاحتباك قوله تعالى: "هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا"⁶⁰ والتقدير عند العلامة الألوسي: "هو الذي جعل لكم الليل مظلما لتسكنوا فيه والنهار مبصرا لتتحركوا فيه لمصالحكم" ويصرح الألوسي بصنعة الاحتباك في الآية قائلا: "حذف من كل ما ذكر في الآخر اكتفاء بالمذكور عن المتروك، وفيه على هذا صنعة الاحتباك والآية شائعة في التمثيل بما لذلك وهو الظاهر فيها."⁶¹

ونجد صاحب الدر المصون يعبر عن إعجابه البالغ بفصاحة الآية الكريمة، وجاء كلامه واضحا جدا في تحليل الآية الشريفة، حيث قال: "انظر إلى فصاحة هذه الآية، حيث حذف من كل جملة ما ثبت في الأخرى، وذلك أنه ذكر علة جعل الليل لنا، وهي قوله: لتسكنوا، وحذفها من جعل النهار، وذكر صفة النهار وهي قوله: مبصرا، وحذفها من الليل لدلالة المقابل عليه، والتقدير: هو الذي جعل لكم الليل مظلما لتسكنوا فيه والنهار مبصرا لتتحركوا فيه لمعاشركم، فحذف: مظلمًا، لدلالة مبصرا عليه، وحذف: لتتحركوا، لدلالة: لتسكنوا"، وهذا أفصح كلام.⁶²

ونص صاحب التحرير والتنوير كذلك على كون الحذف الوارد في الآية الكريمة من صنعة الاحتباك: يقول: "ولما قابل السكون في جانب الليل بالإبصار في جانب النهار، والليل والنهار ضدان دل ذلك على أن علة السكون عدم الإبصار، وأن الإبصار يقتضي الحركة فكان في الكلام احتباك."⁶³

أما العلامة أبو السعود، فإنه حلل الآية كما مر عند الألوسي، لكنه لم يصرح بذكر صنعة الاحتباك، وكما قلنا في البداية أننا لم نعثر على هذا المصطلح في تفسيره، قال في تحليل الآية الكريمة: "والجعل إن كان بمعنى الإبداع والخلق ف- مبصرا- حال، وإلا ف- لكم- مفعولُه الثاني أو هو حال كما في الوجه الأول والمفعول الثاني -لتسكنوا فيه- أو هو محذوف بدل عليه المفعول الثاني من الجملة الثانية كما أن العلة الغائبة منها محذوفة اعتمادا على ما في الأولى والتقدير: هو الذي جعل لكم الليل مظلماً لتسكنوا فيه والنهار مبصراً لتتحركوا فيه لمصالحكم"، كما سيجيء نظيره في قوله تعالى "وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَ لِفَضْلِهِ"⁶⁴ الآية فحذفت في كل واحدٍ من الجانبين ما دُكر في الآخر اكتفاءً بالمذكور.⁶⁵ وما ذكر أبو السعود هنا من قوله تعالى: "وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَ لِفَضْلِهِ" فإنه حلل الآية الكريمة في موضعها بدون التصريح على صنعة الاحتباك. أما العلامة الألوسي فبعد أن نقل عبارة أبي السعود، أضاف إليها أنه من الاحتباك، يقول في تفسيره: "ويحتمل أنه أريد معنى الفعلين في كل من الخير والضر لاقتضاء المقام تأكيد كل من الترغيب والترهيب إلا أنه قصد الإيجاز في الكلام فذكر في أحدهما المس وفي الآخر الإرادة ليدل بما ذكر في كل جانب على ما ترك في الجانب الآخر، ففي الآية نوع من البديع يسمى احتبأكا."⁶⁶

وإذ نظرنا إلى ما ذكره الألوسي في تحليل الآية، فيبدو أنه اكتفى بنقل عبارة أبي السعود في كلا الموضوعين، خلا أنه صرح بصنعة الاحتباك ولم يصرح به أبو السعود كما لم يصرح به صاحب الدر المصون وهو أسبق منه، ولعل السبب في ذلك أن المصطلحات البلاغية نشأت وتطورت مع مرور الوقت وتقدم التأليفات المنفردة في مصطلحات هذا الفن، إضافة إلى ذلك أن منهج أبي السعود، هو منهج تحليلي إشاري، فإنه يحلل النص القرآني معتمداً على أصول بلاغية، لكنه لا يتعرض لبيان تلك الأصول ومناقشتها إلا إذا كان ضرورياً ولا مندوحة منه. ونرى أن هذا المنهج وهو أن تصل إلى استنباط القاعدة ومعرفة المصطلح البلاغي من خلال التحليل والشرح، أكثر فائدة وأبلغ في الوصول إلى الهدف المطلوب من أن تصل إلى فحوى النص ومفاده من خلال القواعد وتعريفات المصطلحات.

النوع الرابع: الاختزال: وهو كل حذف في الكلام غير داخل في الأقسام الثلاثة السابقة - لاقتطاع - الاكتفاء - الاحتباك-. وقد تتبع النحويون والبلاغيون والمفسرون هذا النوع من الحذف فوجدوا أنه يشمل حذف الاسم، و الفعل، و الحرف، وحذف جملة، أو عدة جمل، وحذف كلام طويل في قصة ذات أحداث كثيرة.⁶⁷ هو فهو يشتمل على كل من حذف المضاف، والمضاف إليه، وحذف المبتدأ والخبر، وحذف الموصوف والصفة، وحذف المعطوف عليه والمعطوف وحذف المبدل منه، وحذف الفاعل والمفعول به، وحذف الحال وصاحبه، وحذف المنادى، وحذف العائد، وحذف الموصول وغير ذلك.

ونظراً إلى كثرة أنواع هذا الحذف، وتوسع أساليبه وتنوع أغراضه وتعدد مباحثه، لم نتعرض له بشكل مفصل يحيط الموضوع من كل الجوانب، بل اكتفينا هنا- في هذا المقال- بعرض صورة مجملية ليكشف عن الإمام -عناية الإمام أبي السعود بتطبيق البلاغة العربية على التراكيب القرآنية، وتكون صورة نموذجية للدراسات والبحوث في البلاغة القرآنية. وقد درسنا هذا الموضوع بالبسط والشرح في دراستنا للدكتوراة في البلاغة القرآنية التي تحمل عنوان: التوكيد والتقديم والحذف ودلالاتها البلاغية في تفسير أبي السعود". وتعرضنا لجميع مواضعه وناقشناه على نهج الكتب البلاغية، حيث بدأنا بحذف المسند إليه والمسند وما إلى ذلك، حيث أحاطت دراستنا بأمتلئة لجميع هذه الصور للحذف - الاختزال - . ثم أفردنا لحذف المفعول به ودلالاته فضلاً مستقلاً، لأهميته وكثرة عنايته البلاغين والمفسرين بإبراز أسرارته وإيجازاته.

الخاتمة : النتائج والاقتراحات:

قد وصلنا من خلال هذا المقال إلى بعض النتائج والتوصيات، نورد مجملها فيما يلي:

1. قد لاحظنا في تفسير العلامة أبي السعود- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الحكيم- عناية كبيرة والمأما بالغا بإبراز الأسرار البلاغية لظاهرة الحذف وغيرها من ظواهر هذا الفن الجليل، والخوض في مسأله، والإحاطة بقضاياها، كما لا حظنا أيضا أن للعلامة أسلوب يفوق به كل من طبق أو عالج القضايا البلاغية في مؤلفاته من البلاغين والمفسرين.
2. أما في ظاهرة الحذف فقد اعتمدنا في معالجة أنواع الحذف وتعريفاته- بشكل عام- على ما أورده العلامة الزركشي في البرهان، والعلامة السيوطي في معترك الأقران. لأهنا بسطا وفصلا في هذا الموضوع. فأنواع الحذف عندهما، هي: الاقتطاع، والاحتباك، والاكتفاء والاختزال. فأما بالنسبة لقسمين- الاقتطاع والاحتباك- فلم نعثر على هذين المصطلحين في تفسير أبي السعود، رغم أنه أشار في عدة مواضع من القرآن الكريم إلى الحذف الذي جعله البلاغيون من قبيل هذين القسمين، لكن العلامة لم يصرح بهما كمصطلحين، ولعل السبب في ذلك أن مصطلحات هذا الفن قد تبلورت وتطورت مع مرور الزمان. وربما لم يتعرض للتصريح بهما لعدم شيوع المصطلحات، وعدم ضبطها واستقرارها.
3. وأما بالنظر إلى النوع الثالث، وهو: الاكتفاء، فقد لاحظنا أن هذا النوع قد نال عناية كبيرة عند العلامة أبي السعود، حيث أشار إليه فيما يقارب ثمانين موضعا من القرآن الكريم. وأنه وفق في أكثرها بما توفيق. كما لا حظنا أنه متفرد في بعض تحليلاته البلاغية، حيث لا يوجد هناك رأي أو تحليل كراهيه وتحليله لغيره من الإمام الزمخشري والقاضي البيضاوي وصاحب البحر المحيط.
4. وأما بالنسبة للنوع الرابع وهو: الاختزال، فدراسته- على نصح الكتب البلاغية- تحتاج إلى بحث مستقل لأن مباحثه تشتمل على حذف المسند إليه وحذف المسند، والمضاد، والمضاف إليه، والصفة والموصوف، وكذلك حذف الجملة- جملة الأجوبة، وجملة الشرط، وجملة المعطوف عليه، وجملة القول، والعامل-، وحذف المفعول. وبناء على كثرة مواقفها الشريفة في الذكر الحكيم والحرص البالغ على إبراز أسرارها للعلامة أبي السعود يمكن القول بأن يدرس كل هذه الموضوعات بدراسات مستقلة وبحوث منفردة.
5. قد نؤكد- نتيجة لما عالجنا في هذا المقال- أن تفسير أبي السعود يمتاز بالإحاطة والاستيعاب للقضايا البلاغية الواردة في التراكيب القرآنية، حيث يقف مؤلفه- العلامة أبو السعود- أمام التركيب القرآني متديرا فاحصا، باحثا متأملا في استنباط المزايا البلاغية الكامنة في التركيب القرآني المعجز. حتى منهجه في استنباط المسائل البلاغية واستخراجها يشبه الاستقراء والإحصاء. وبذلك يُعد تفسيره كنزا زاخرا للتطبيقات والشواهد البلاغية.
6. غالب أسلوبه- في تناول القضايا البلاغية- يتراوح بين التصريح بالأصل البلاغي وبين الاكتفاء بإيراد المعنى وبقائه، أي عدم التصريح بالأصل البلاغي، وهذا أليق وأكد بالتركيب القرآني المعجز، مع ذلك أنه أسلوب المتقدمين- عبد القاهر الجرجاني، الزمخشري وغيرهما- في تحليل التركيب القرآني المعجز تحليلًا بلاغيًا.
7. وبناء على ما بذله من جهد في استقصاء القضايا البلاغية واستنباط أسرارها ومزاياها البلاغية في التراكيب القرآنية، يمكن لنا أن نوصي الدارسين بتناول كل باب من أبواب علم المعاني لرسالة علمية قائمة برأسها، تحصي وتستقصي كافة جوانب الموضوع، في بابه. كما يمكن أن يوجههم إلى مقارنة أسلوبه مع غيره، ليظهر تفوقه البعيد على الآخرين.
8. إن المنهج التعليمي البلاغي في باكستان، لا يزال يعتمد على مثال جاف مصنوع متكلف، وعلى شاهد يتيم بعيد عن التنويع البلاغي، الذي ينقله اللاحق عن السابق، وهو لا يزود الدارسين بفهم دقيق للنصوص الأدبية- الشعرية والنثرية-، ولا يشفي غليلهم. لذلك نوصي معلمي البلاغة بالاستفادة من هذا التفسير لاحتوائه على الأمثلة والشواهد البلاغية المشروحة المقرونة بالتحليل والتعليل في مسائل علم البلاغة.

الهوامش والمصادر:

- 1- لسان العرب، مُجَّد بن مكرم بن علي، المعروف بابن منظور، ط3، 1414هـ، دارصادر-بيروت، 39/9-40.
- 2- النكت في إعجاز القرآن الكريم، علي بن فضال بن علي، أبو الحسن، المجاشعي القيرواني، ط1، 1428هـ، دار النشر، دارالكتب العلمية-بيروت، ص:76.
- 3- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين مُجَّد بن عبد الله الزركشي، ط1، 1376هـ، دار المعرفة، بيروت-لبنان، 3/115.
- 4- قال ابن جني في الخصائص: قد حذفت العرب الجملة والمفرد والحرف والحركة، وليس شيء من ذلك إلا عن دليل عليه، وإلا كان فيه ضرب من تكليف علم الغيب في معرفته. ينظر: الخصائص، 2/362.
- 5- انظر خصائص التراكيب، مُجَّد بن محمد أبو موسى، ط7، مكتبة وهبة، ص:153.
- 6- دلائل الإعجاز، أبو بكر عبد القاهر الجرجاني، المحقق، محمود مُجَّد شاکر، ط3، 1413هـ، مطبعة المدني-القاهرة، 1/146.
- 7- سر الفصاحة، عبد الله بن مُجَّد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي، ط1، 1402هـ، دار الكتب العلمية، ص:214.
- 8- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، ط4، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2/362.
- 9- معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين السيوطي، ط1، 1408هـ، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 1/241.
- 10- البرهان في علوم القرآن، 3/117.
- 11- البلاغة العربية: عبد الرحمن بن حسن حَبَّكَّة المياداني الدمشقي، ط1، 1416 هـ - 1996 م، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، 2/46.
- 12- الزخرف: 77.
- 13- قرأ بها عبد الله بن مسعود. ينظر الكشف، 3/496، والقرطبي 16/77، المحرر الوجيز، 5/64.
- 14- خصائص التراكيب، ص:155.
- 15- البيت لامرؤ القيس، من معلقته المشهورة، ديوانه، ص:32. وخزانة الأدب، 11/222. و شرح المعلقات السبع للزوزني، ص:45.
- 16- البلاغة العربية، 2/47.
- 17- الكهف: 38.
- 18- المائدة: 6.
- 19- معترك الأقران في إعجاز القرآن، 1/242.
- 20- انظر، البرهان في علوم القرآن، 3/119. كذلك انظر، معترك الأقران في إعجاز القرآن، 1/243.
- 21- أبو السعود، مُجَّد بن محمد بن مصطفى العمادي، دار إحياء التراث العربي-بيروت، 1/22.
- 22- المائدة: 2.
- 23- أبو السعود، 3/5.
- 24- الكهف: 97.
- 25- أبو السعود، 5/246.
- 26- الكهف: 82.
- 27- أبو السعود، 5/239.
- 28- الزخرف: 77.
- 29- أبو السعود، 8/55.
- 30- سنن أبي داود، الحديث: 4417، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتَانِي (المتوفى: 275هـ)، تحقيق، شعيب الأرنؤوط، ط1، 2009م، دار الرسالة العالمية، 6/468.
- 31- العمدة في محاسن الشعر وآدابه، 1/253.
- 32- البيت من البسيط، وهو لعلقمة بن عبدة في ديوانه ص:70، ولسان العرب 1/457.
- 33- البيت للبيد بن ربيعة في ديوانه ص:138. وعروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، 1/65.
- 34- العمدة في محاسن الشعر وآدابه، 1/254.

- 35 - انظر معترك الأقران في إعجاز القرآن، 241/1. كذلك انظر، البرهان في علوم القرآن، 117/3.
- 36 - البيت من البسيط، وهو لعلقمة بن عبدة في ديوانه ص: 70، ولسان العرب 457/1.
- 37 - المثل الثائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، دار نضضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 260/2.
- 38 - معترك الأقران في إعجاز القرآن، 242/1.
- 39 - النحل: 81.
- 40 - معترك الأقران في إعجاز القرآن، 243/1.
- 41 - آل عمران: 81.
- 42 - أبو السعود، 54/2.
- 43 - النساء: 1
- 44 - أبو السعود، 138/2.
- 45 - الإسراء: 35.
- 46 - أبو السعود، 571/5.
- 47 - الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، ط 1، 1415هـ، دار الكتب العلمية-بيروت، 70/8.
- 48 - أبو السعود، 89/1.
- 49 - الكهف: 5
- 50 - آل عمران: 37
- 51 - آل عمران: 38
- 52 - أبو السعود، 254/5.
- 53 - معترك الأقران في إعجاز القرآن، 241/1
- 54 - البرهان في علوم القرآن، 144/3.
- 55 - الاتقان، 206/3، معترك الأقران، 241/1 وما بعدها.
- 56 - التوبة: 102.
- 57 - الإتقان، 170/2. وشرح عقود الجمان، ص: 70.
- 58 - أبو السعود، 98/4.
- 59 - تفسير الألوسي، 14/6.
- 60 - يونس: 67.
- 61 - تفسير الألوسي، 146/6.
- 62 - الدر المصون، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي، دار القلم-دمشق، 237/6.
- 63 - التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، ط 1، 1984م، دار النشر التونسية-تونس، 227/11.
- 64 - يونس: 107.
- 65 - أبو السعود، 162/4.
- 66 - تفسير الألوسي، 187/6.
- 67 - البلاغة العربية، 57/2.